عن العرب والمحرقة النازيّة

جلبير الأشقر*
نقله عن الإنكليزيّة: سماح إدريس

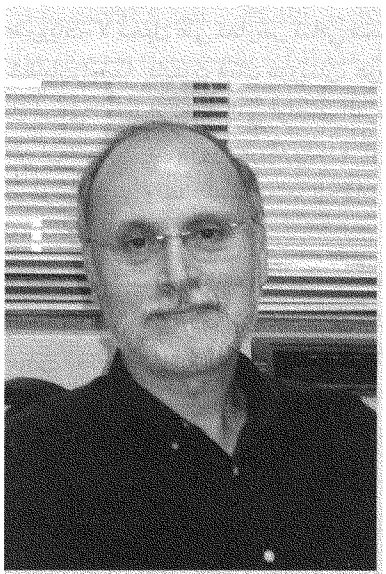

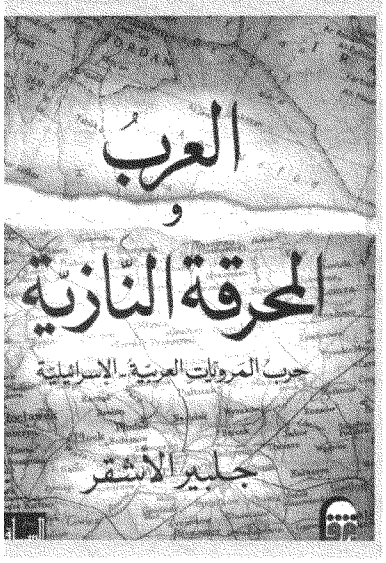

بدأتْ حكايةُ هذا الكتاب هنا في برلين، حيث عشتُ أربعةَ أعوام عملتُ خلالها باحثًا في مركز أبحاث مارك بلوخ الفرنسيّ ـ الألمانيّ للعلوم الاجتماعيّة.

هنا شرعْتُ البحثَ في هذا الموضوع: فقد دُعيتُ إلى الإسهام في كتاب إيطاليّ عن المحرقة النازيّة، وهو مؤلَّفٌ ضخمٌ مكوّنٌ من أجزاءٍ عدّة، وطُلب إليّ كتابةُ فصل عن المشرق العربيّ ضمن الجزء المخصّص للتفاعل الدوليّ مع المحرقة.

هكذا بدأت الحكايةُ بأسرها، إذ سرعان ما اكتشفتُ أنّ الغالبيّة الساحقة من المنشورات المعنيّة بهذا الموضوع قطعٌ دعاويّة [بروپاغندا] لا تحقيقاتٌ علميّة.

* ـ نصّ محاضرة ألقاها جلبير الأشقر في برلين في ٢٠١٠/٥/١١، تحت رعاية مركز مارك بلوخ ومركز الشرق الحديث (ZMO) في برلين. والأشقر كاتبٌ عربيّ لبنانيّ، وأستاذٌ في معهد الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة في جامعة لندن. محورُ المحاضرة هو كتابُ الأشقر الجديد، **العرب والمحرقة النازيّة: حربُ المرويّات العربيّة ـ الإسرائيليّة**. وقد صدر عن دار الساقي هذا العام.

شجّعني الأصدقاءُ والناشرون الذي قرأوا فصلي ذاك على تطويره ليصبح كتابًا. وعليه، فإنّ ما بدأ مشروعًا لتأليف كتابٍ صغيرٍ من حوالى ٤٠ ألف كلمة انتهى إلى أن يكون مخطوطةً من ١٥٠ ألف كلمة، أو ٥٢٥ صفحةً من النسخة الفرنسيّة الأصليّة التي ظهرتْ في تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٩. وفي كانون الثاني الفائت صدرتْ طبعةٌ عربيّةٌ في القاهرة، وأخرى في بيروت مؤخّرًا. كما صدرت الطبعة الإنجليزيّة في نيويورك ولندن منذ مدّةٍ قصيرة. أمّا الطبعة الألمانيّة فسوف تصدر في بداية سنة ٢٠١٢.

العنوان الفرعيّ للكتاب هو «حربُ المرويّات العربيّة ـ الإسرائيليّة.» وأعني بالمرويّات الطرقَ المختلفةَ التي عُرضتْ فيه العلاقةُ التاريخيّةُ بين العرب والمحرقة. وصيغة الجمع في كلمة «مرويّات» لا تُحيل على تعارضٍ ثنائيٍّ فحسب، بل على تعدّديّةِ خطاباتٍ أيضًا. فليست هناك مرويّتان، عربيّة وإسرائيليّة، فقط. بل إحدى النُّقَط الرئيسة التي أواصل التركيزَ عليها في الكتاب هي أنّ الحديث عن مرويّةٍ عربيّةٍ واحدة، أو خطابٍ عربيٍّ واحد، أو موقفٍ عربيٍّ واحد، منافٍ تمامًا للحقائق التاريخيّة، خلافًا لما يودّ مؤلّفون كثيرون إقناعَنا به.

لا معنى للحديث عن «خطاب عربيّ» بصيغة المفرد: بل إنّ المرء ليجدُ في العادة تيّاراتٍ إيديولوجيّةً أو سياسيّةً مختلفة حتى ضمن الفئة الاجتماعيّة الصغيرة الواحدة ـ باستثناء الأحزاب السياسيّة والجماعات الدينيّة الأحاديّة المتراصّة، طبعًا. فكم بالأحرى حين يجري التعاملُ مع قسمٍ كبيرٍ من سكّان المعمورة، كما هو حالُ العالم العربيّ؟!

إنّ الاعتقاد أنّ هناك خطابًا أو موقفًا عربيًا واحدًا محضُ عبث. وبمقدوري أنّ أقول الشيءَ نفسَه عن المجتمع الإسرائيليّ، الأصغرِ بكثير؛ إذ ليست هناك بالتأكيد مرويّةٌ إسرائيليّةٌ واحدة، وإنّما آراءٌ مختلفةٌ عن تاريخ الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ؛ ولعلّكم مطّلعون على «المؤرّخين الإسرائيليّين الجدد» الذين أسهموا إسهامًا كبيرًا على الصعيدين الثقافيّ والأكاديميّ في دحض المفهوم المهيمن في إسرائيل.

هذا وتحيلنا «حربُ المرويّات» على «المرويّات الحربيّة.» بكلام آخر، نحن نتعامل ههنا مع بروپاغندا زمن الحرب. وقد تركّز بحثي على المرويّات المتعلّقة بالبعد الدعاويّ للحرب، وهو بعدٌ يؤدّي في هذا الصراع تحديدًا دورًا أهمّ ربّما ممّا قد يؤدّيه في أيّ صراعٍ آخر يمكن أن يَخْطر في بالي. ولا يَصْعب فهمُ سبب ذلك، إذ هو مرتبطٌ بطبيعة المشروع الصهيونيّ ذاتها.

فلقد تأسّست الحركةُ الصهيونيّةُ في أواخر القرن التاسع عشر من أجل العمل على إنجاز رؤيتها لـ «دولة اليهود،» ونجحتْ في النهاية في تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. استند المشروعُ الصهيونيُّ إلى منظور استيطانيّ كولونياليّ، لكنّه لم يكن مدعومًا في البداية من أيّة حكومة، فكان على الحركة الصهيونيّة أن تأتي بدعم قوةٍ كولونياليّةٍ تمكّنها من تحقيق مشروعها على أرضٍ تحتلّها. وقد استطاع الصهاينةُ تلقّي الدعم، في خاتمة المطاف، من الإمبراطوريّة البريطانيّة، التي وعدتهم به في رسالةٍ شهيرةٍ كتبها وزيرُ الخارجيّة اللورد آرثر بلفور إلى البارون والتر روتشايلد. و«إعلانُ بلفور» ـ كما بات يسمّى ـ أعطى الحركةَ الصهيونيّةَ ضوءًا أخضر لتنفيذ مشروعها في فلسطين بعد سقوطها تحت الانتداب الكولونياليّ البريطانيّ في نهاية الحرب العالميّة الأولى عقب انهيار الإمبراطوريّة العثمانيّة التي كانت فلسطينُ جزءًا منها حتى ذلك الحين.

إذن، استندت الحركةُ الصهيونيّةُ منذ البداية، وبشكلٍ طبيعيّ، إلى الدعم الخارجيّ الإمبرياليّ: من بريطانيا أولاً، فالولايات المتحدة لاحقًا، مرورًا بدعم سوڤياتيّ موجَز ـ ولكنّه حاسم ـ عند تأسيس دولة إسرائيل. هذا الاعتماد على الدعم الخارجيّ تواصَلَ بعد ذلك التأسيس، عسكريًا وماليًا، من مصادرَ متنوّعة، وبخاصّةٍ من ألمانيا الاتحاديّة منذ أوائل الخمسينيّات، ومن فرنسا حتى منتصف الستينيّات، ومن الولايات المتحدة منذ منتصف الستينيّات فصاعدًا. وهذا يفسّر سببَ تكريس الحركة الصهيونيّة ودولةِ إسرائيل جهدًا كبيرًا طوال تاريخهما لكسب دعم الحكومات الغربيّة وتعزيزه، ولكسب تعاطف الرأي العامّ الغربيّ للغرض نفسه؛ ذلك لأنّ الحكومات في الديموقراطيّات الغربيّة «حسّاسةٌ» في العادة تجاه الرأي العامّ في بلدانها.

لقد كان هناك دائمًا جهدٌ صهيونيٌّ/إسرائيليٌّ لمخاطبة الرأي العامّ الغربيّ، في حين تميّز الجانبُ العربيّ بغياب أيّ جهدٍ مماثل، على الأقلّ حتى حلول سنة ١٩٦٧. والمثال على هذا الفارق هو حين قرّر جان پول سارتر عام ٦٧ أن يخصّص ملفًا من مجلّته، **الأزمنة الحديثة**، للصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ: فاللاتكافؤ المذهل بين حجم المساهمات العربيّة وحجم المساهمات الإسرائيليّة لصالح الأخيرة، على الرّغم من جهود المحرّرين في الموازنة بين المساهمات جميعِها، يشير إلى الخلل آنذاك في الأهميّة التي يوليها كلُّ طرف من أجل كسب عقول الغربيّين وقلوبهم إلى قضيّته.

❖ ❖ ❖

بيْد أنّ الأمور تغيّرتْ بعد حرب حزيران ١٩٦٧، التي حطّمتْ كلَّ أوهام العرب في تحرير فلسطين عن طريق الحرب. وفي المقابل أدّت هزيمةُ ٦٧ إلى صعود المقاومة الفلسطينيّة المسلّحة، التي أخذتْ بزمام منظّمة التحرير الفلسطينيّة (م.ت.ف). فلقد تزايد إدراكُ القيادة الفلسطينيّة الجديدة، على مرّ السنوات، لأهميّة العامل الدعاويّ، ولاسيّما العمل على كسب الرأي العامّ الغربيّ، بسبب الموقع المسيطر للدول الغربيّة ـ وعلى رأسها الولاياتُ المتحدة ـ في الشرق الأوسط. هكذا سَعَتِ القيادةُ المذكورةُ إلى تطوير خطابٍ يستميل الغربيّين المتنوّرين، وإنْ بقي وقعُهُ محصورًا إلى زمنٍ طويل في أقسامٍ من اليسار فقط.

أما الصهاينة فاحتاجوا منذ البداية إلى دعم الرأي العامّ الغربيّ لكي ينشئوا دولتهم، ولكي يرسّخوا وجودَها في قلب محيطٍ معادٍ بعد إنشائها. ولهذا احتاجوا إلى إقناع ذلك الرأي العامّ بشرعيّة دولتهم، وبشرعيّةِ أفعالها وحروبها. ومن هنا الجهدُ الدائمُ والمكثّفُ الذي بذلتْه الحركةُ الصهيونيّةُ لشرعنة مشروع دولتها حتى قبل أن تنال موافقةَ الجمعيّة العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٧ (عبر قرار التقسيم).

في الأصل تركّزت الحجّة الصهيونيّةُ على «معاداة الساميّة،» منظورًا إليها من المنظار الصهيونيّ بوصفها محتومةً وعصيّةً على العلاج ما دام اليهودُ يعيشون وسط الأغيار، بحيث يكون الحلُّ الوحيدُ لمعالجة هذه المشكلة هو خلق «دولة اليهود» (Judenstaat) ـ وهو العنوانُ الألمانيّ الأصليّ لبيانٍ مؤسِّس الصهيونيّة الدولتيّة الحديثة، ثيودور هرتزل. وإلى جانب حجّة «معاداة الساميّة» كان للصهيونيّة بعدٌ قوميٌّ موجّهٌ حصرًا إلى اليهود. في الأصل لم يكن هذا البعدُ مقيَّدًا بفلسطين وحدها: فهرتزل، النمساويّ العلمانيّ، كان يرغب في إيجاد «دولةٍ لليهود» في أيّ مكان، أكان ذلك في أفريقيا أمْ أميركا اللاتينيّة؛ بل هو رغِبَ في أن تكون الألمانيّةُ لغتَها الرسميّة. لكنّ ذلك لم يحصلْ في النهاية، وإنما استند المشروعُ الى نوعٍ جديدٍ من الشرعنة: شرعنةٌ مستندةٌ إلى الدين، وإلى البعد التوراتيّ تحديدًا، ومؤدّاها أنّ الشعبَ اليهوديّ عاش في فلسطين قبل ألفيْ عام وأنّه «سيعود» إلى فلسطين ـ وفي ذلك تطبيقٌ لحلم «العودة» إلى القدس، الذي يقع في قلب التراث الدينيّ اليهوديّ. وجاءت رسالةُ بلفور إلى روتشايلد لتدفعَ بهذا الخيار قُدُمًا، وبشكلٍ حاسم، وذلك بإعلانها أنّ حكومتَه تنظر بعين العطف إلى «إنشاء وطنٍ قوميٍّ للشعب اليهوديّ في فلسطين.»

إلاّ أنّ الشرعنة الكولونياليّة ـ الدينيّة ازدادتْ ضعفًا، وتناقصتْ فعّاليّةً، في إقناع الرأي العامّ الغربيّ والحكوماتِ الغربيّة بين الحربيْن العالميّتيْن وبعد الحرب العالميّة الثانية. فبدخول العالم مرحلةَ ما بعد الاستعمار، لم تعد الحركةُ الصهيونيّةُ قادرةً على تلقّي الدعم بوصفها مشروعًا استيطانيًا كولونياليًا متأخّرًا لكون هذا البعد من أبعاد هويّتها بات مفوّتًا [مناقضًا للتاريخ]. وفي المقابل، قوّت المرحلةُ النازيّةُ حجّةَ «معاداة الساميّة» على نحوٍ هائلٍ ومروِّع. غير أنّ الحركة الصهيونيّة كانت في هذا الصدد تواجه حجّةً قويّةً من الجانب العربيّ: إنّها الحجّة العربيّة الكلاسيكيّة، وهي الحجّةُ الوحيدةُ التي تسمو فوق اختلافات العرب، مواقفَ وخطاباتٍ، وتمّ التعبيرُ عنها مبكّرًا جدًا، منذ قبض النازيّون على السلطة في ألمانيا. وهي تمضي كالآتي: «النازيّة شنيعة، ومعاداةُ الساميّة دنيئة، ونحن ـ عربًا ومسلمين ـ نمتلك تراثًا مختلفًا يقوم على التعايش السلميّ مع اليهود. لا يجوز لأحدٍ أن يحمّلنا مسؤوليّةَ الجرائم الألمانيّة والأوروبيّة، ولا أن يُطلبَ إلينا أن ندفعَ الثمنَ نيابةً عن المجرمين. لا يجوز أن تُحلّ المسألةُ اليهوديّةُ على حسابنا، على حساب فلسطين.»

استطاعت الحركةُ الصهيونيّةُ أن تصوِّر نفسَها بعد العام ١٩٤٥ وكأنّها تواصلُ القتالَ ضدّ النازيّة، وأنّ تصوّرَ الحربَ ضدّ العرب عامَ ١٩٤٨ وكأنّها المعركةُ الأخيرةُ في الحرب العالميّة الثانية.

احتاج الصهاينةُ إلى مواجهة الحجّة العربيّة هذه. وكانت الطريقةُ الأسهلُ هي إنتاجَ مرويّةٍ تصوِّر العربَ عامّةً، والفلسطينيين العربَ تحديدًا، وكأنّهم يواصلون المشروعَ النازيّ. هكذا استطاعت الحركةُ الصهيونيّةُ أن تصوِّر نفسَها بعد العام ١٩٤٥ وكأنّها تواصلُ القتالَ ضدّ النازيّة، وأنّ تصوّرَ الحربَ ضدّ العرب عامَ ١٩٤٨ وكأنّها ـ بشكلٍ من الأشكال ـ المعركةُ الأخيرةُ في الحرب العالميّة الثانية. هذه المرويّة «الصهيونيّة» تمحورتْ حول شخصيّة مفتي فلسطين، الحاجّ محمد أمين الحسيني، الذي كان في المرويّة الصهيونيّة، وما يزال، شخصيّةَ «الشرّير» التي لا تنفكّ تتصدّر حربَها الدعاويّة.

❖ ❖ ❖

لا شكّ في أنّ أمين الحسيني لعب دورًا دنيئًا أثناء الحرب العالميّة الثانية، بعد أن التجأ إلى أوروبا بين عاميْ ١٩٤١ و١٩٤٥. فقد تنقّل بين برلين وروما، وتعاون مع دولتَي المحور، إيطاليا وألمانيا، مسهمًا في دعايتهما المكثّفة الموجّهة إلى العرب والمسلمين. بل شارك في بناء وحدات «إس. إس» نازيّةٍ بين مسلمي البلقان. وفي مخاطبته العربَ والمسلمين لحساب ألمانيا، نقل أطروحاتٍ رئيسةً في النازيّة. وكان على قرابةٍ وثيقةٍ باللاساميّة النازيّة، متّفقًا مع البعد المعادي لليهود في النظرة النازيّة إلى العالم، وإنْ لم يَنتسبْ إلى الحزب النازيّ ولم يتبنَّ إيديولوجيّته بالكامل.

بيْد أنّ المفتي تحوّلَ، بفضل البروپاغندا الصهيونيّة، إلى ممثّلٍ لكلّ الفلسطينيين، إنْ لم يكن لكلّ العرب. ومؤخّرًا، مع التصاعد المذهل لرُهاب الإسلام (الإسلاموفوبيا) بعد اعتداءات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، «رُقّي» المفتي إلى منزلة ممثّل المسلمين، وإنْ لم يكن الإسلام عامّةً، فإلى منزلة ممثّل «الفاشيّة ـ الإسلاميّة،» وهو تعبيرٌ يُقصد به أن يَشْمل كلّ الحركات التي تُحيل على الإسلام في صراعها ضدّ الاحتلالات والاعتداءاتِ الغربيّةِ و/أو الإسرائيليّة، سواء كانت مجموعاتٍ إرهابيّةً هامشيّةً أو حركاتٍ شعبيّة. غير أنّ الحقيقة تخالف ذلك تمامًا: فلئن كنتُ لا أكنّ إلاّ الاحتقارَ للدور الذي أدّاه الحسيني أثناء الحرب العالميّة الثانية، فإنّ تضخيمَه إلى درجةِ تصويره أحدَ مقترفي الإبادة النازيّة الأساسيّين، وإلى درجة تصويره ـ فوق ذلك كلّه ـ ممثّلاً عن الشعب الفلسطينيّ بأسْره، إنْ لم يكن العرب جميعهم، لهو افتراءٌ مناقضٌ للحقيقة التاريخيّة. وهناك حججٌ كثيرةٌ تعزّز ما أقول، بل هي أكثرُ من أن يُحتمَل ذكرُها في هذا العرض الموجز.

ولكنْ فلنتأمّلْ، على الأقلّ، الإشارةَ الأوضحَ إلى أثر المفتي الفعليّ، عنيتُ: التأثير الفعليّ لحَضِّه الفلسطينيين والعربَ، من برلين وروما، على حمل السلاح ضدّ البريطانيّين، وعلى القتالِ إلى جانب ألمانيا وإيطاليا. فالحقيقة هي أنّ ذلك الحضّ كان ذا أثرٍ ضئيلٍ جدًا، إذ يكاد ألاّ يكونَ قد حدث أيُّ تمرّدٍ عربيّ ضدّ البريطانيّين أثناء الحرب. والإشارة الوحيدة في هذا الصدد تتعلّق بالانقلاب الذي وقع في العراق عام ١٩٤١ [حركة رشيد عالي الكيلاني] وتصِفه الأدبيّاتُ الدعاويّةُ بأنّه كان مؤيِّدًا للنازيّة. وهذا تشويهٌ للحقيقة التاريخيّة، إذ إنّ جُلَّ ما يمكن قولُه إنّه كان انقلابًا معارضًا للبريطانيّين. بل علينا أن نتحوَّطَ عند إصدار هذا القول الأخير نفسه: فالحال أنّ قادة الانقلاب المذكور كانوا، قبل كلّ شيء، قوميّين استقلاليين، وقد حاولوا استمالةَ البريطانيّين في البداية قبل أن يَقمعَهم التدخّلُ العسكريُّ البريطانيّ. لقد كان التعنُّتُ البريطانيّ هو ما دَفَعهم إلى السعي وراء دعم برلين، بل ودعم موسكو أيضًا.

بعد فشل الانقلاب في العراق، ذهب المفتي إلى برلين وروما. وكلُّ مناشداته العربَ والمسلمين، من الإذاعتين الألمانيّة والإيطاليّة، لم تُجْدِ فتيلاً. والدليل الأبرز على ذلك هو العددُ الإجماليُّ للعرب الذين التحقوا بالمنظّمات العسكريّة الألمانيّة النازيّة من كلّ العالم العربيّ، من العراق إلى المغرب: ٦٣٠٠ عربيّ على وجه أحد التقديرات. قارنوا هذا بعدد العرب الذين قاتلوا في صفوف الحلفاء: فمن فلَسطين وحدها كان هناك ٩٠٠٠ عربيّ انخرطوا في الجيش البريطانيّ، ناهيك بربع مليون من شمال أفريقيا (أمازيغَ وعربًا) قاتلوا في جيش التحرير الفرنسيّ (بقيادة شارل دوغول) وشكّلوا غالبيّةَ ضحايا هذا الجيش.

أنا لا أزعم طبعًا أنّ المفتي لم يمثّل سوى نفسه؛ فلقد كان لديه عدد كبيرٌ من الأتباع. لكنّه كان أبعدَ ما يكون عن زعيمٍ يحظى بالإجماع. على العكس: كان المفتي محطَّ خلافٍ وتشكيكٍ شديديْن، وكان أعداؤه كثيرين سواء في فلسطين أو في بلدانٍ عربيّةٍ أخرى. غير أنّ السبب في أنّ الحسيني كان وما يزال موضعَ اهتمامٍ كبيرٍ [في الخطاب الصهيونيّ] يعود إلى أنّه يقع في صميم أكثرِ الأطروحات ملاءمةً للدعاية الصهيونيّة التي تودّ تصويرَ الفلسطينيّين أو العرب مؤيّدين للنازيّة، وتصويرَ الحرب العربيّة ـ الإسرائيليّة عام ١٩٤٨ وطردِ الفلسطينيّين بمثابة معركةٍ يهوديّةٍ ضدّ لاساميّين أشباهِ نازيين. وبحسب تعبير [المؤرِّخ الإسرائيليّ] بني موريس، في مقابلةٍ سيِّئة السمعة مع هآرتس عام ٢٠٠٤، أثارت صيحاتِ استنكارٍ بسبب عنصريّتها الفجّة، «فإنّ الخيار [عام ١٩٤٨] كان بين التطهير العرقيّ [بحقّ الفلسطينيّين العرب] والإبادة [بحقّ اليهود].» هنا يمكن القولُ إنّ موريس أقرّ، على الأقلّ، بأنّ الحركة الصهيونيّة ارتكبت «التطهيرَ العرقيّ» في فلسطين (وإسهامُه في تبيان هذه الحقيقة حين كان ما يزال ضمن فئة «المؤرّخين الإسرائيليّين الجدد» هو ما أَشْهَرَه)، في حين تُواصل البروپاغندا الصهيونيّةُ إنكارَ هذه الحقيقة التاريخيّة بشراسة.

❖ ❖ ❖

امتدّ تصويرُ الحربِ المؤسِّسةِ للدولة الإسرائيليّة بأنّها حربٌ ضدّ النازيّة ليَشملَ حروبًا أخرى. فبعد المفتي وحرب ١٩٤٨، صُوِّر جناحا القوميّة العربيّة الأساسيّان في الخمسينيّات والستينيّات، أيْ جمال عبد الناصر وحزب البعث في سوريا والعراق، بأنّهما من أشباه النازيين. وهناك منشوراتٌ كثيرةٌ تحاول أن تشرحَ أنّ مؤسِّسَ البعث، ميشيل عفلق، كان معجبًا بالنازيّة. وهذا أمرٌ غيرُ صحيح على الإطلاق: فالحقّ أنّه كان متأثّرًا باليسار الماركسيّ، وتعاوَنَ مع الشيوعيّين في الأربعينيّات. كما أنّ هذه البروپاغندا تصوِّر عبد الناصر معاديًا للساميّة وتُشبِّهُه بهتلر، وذلك استنادًا إلى أطروحاتٍ واهيةٍ أناقشها في القسم الثاني من كتابي، الذي يتناول مرحلةَ ما بعد النكبة حتى أيّامنا.

❖ ❖ ❖

وكما ذكرتُ في بداية حديثي، فإنّ إحدى الأطروحات الأساسيّة في الكتاب تتعلّق بتصوّرٍ معيّنٍ للعرب، يتطابق تمامًا مع تصوّرٍ معيّنٍ لليهود. فمثلما يصوِّر هؤلاء في الخطابات اللاساميّة كياناً واحدًا أوحدَ، يصوِّر «العربُ» على ذلك النحو أيضًا ـ لا عند تناول اللغة أو الجغرافية بل في المسائل السياسيّة. غير أنّ هذا النوعَ من التعميم لهو إهانةٌ في ذاته؛ فالحال أنّ هناك تيّاراتٍ سياسيّةً مختلفةً بين العرب، شأنَ أيّ شعبٍ آخر أيًا كان حجمُه. ذلك أنّ بمقدورنا التمييزَ، منذ سنوات ما بين الحربَيْن العالميّتَيْن، وتحديدًا منذ عشرينيّات القرن الماضي، بين أربع «حساسيّاتٍ» إيديولوجيّةٍ أساسيّة هي:

١) مَنْ أسمّيهم «التغريبيّين الليبراليّين» الذين دانوا النازيّة مبكّرًا جدًا بوصفها عنصريّةً وإمبرياليّةً.

٢) الشيوعيّون، الذين كانوا معادين للنازيّة عداءً ضاريًا، باستثناء مرحلة معاهدة ستالين ـ هتلر (أو ريبنتروپ ـ مولوتوف) بين عاميْ ١٩٣٩ و١٩٤١، حين خفّفوا نبرةَ عدائهم تلك.

٣) القوميّون، وبينهم تيّاراتٌ قليلةٌ فحسب تعاطفتْ مع النازيّين في فترة من الفترات. والحقيقة أنّه كانت هناك نسخةٌ حقيقيّةٌ واحدةٌ من النازيّة في كلّ العالم العربيّ، هي الحزبُ السوريّ القوميّ الاجتماعيّ الذي أنشأه أنطون سعادة في بيروت. هذا الحزب قلّد الحزبَ النازيّ في كلّ المجالات عند نشأته، لكنّه قُمِع في بلده في الثلاثينيّات وفي بعض السنوات اللاحقة، ثمّ شهد تحوّلاتٍ مهمّةً وانشقاقاتٍ بدءًا من الستينيّات.

٤) دعاةُ الجامعة الإسلاميّة الرجعيّون و/أو السلفيّون. فمِن ضمن هذا التيّار، منذ نهاية العشرينيّات، نَبَعَ خطابٌ عربيٌّ ـ إسلاميٌّ مُقْتبسٌ عن الخطاب الغربيّ المعادي للساميّة، الذي

كان مسيطرًا على التيّارات اليمينيّة المتطرّفة في أوروبا، قبل أن يصبح عقيدةً للدولة النازيّة. أدبيّاتُ هذا الخطاب معروفةٌ جيّدًا، ولاسيّما **بروتوكولات حكماء صهيون**، وهي الوثيقة التي زوّرها البوليسُ القيصريُّ الروسيُّ وباتت حجرَ الزاوية في نظريّة المؤامرة اليهوديّة الكونيّة التي تقف خلف كلّ الحوادث التاريخيّة، من أزماتٍ اقتصاديّةٍ وحروبٍ وثورات.

❖ ❖ ❖

شهدتْ أواخرُ العشرينيّات، إذًا، انبثاقَ مرويّةٍ مشابهةٍ في العالم العربيّ، مع بعض الإحالات على التراث الإسلاميّ. وجاءت نتيجةً لتفاقم التوتّر في فلسطين. نعم، لم يكن ذلك الخطابُ كامنًا في الثقافة العربيّة أو التاريخ العربيّ من قبل. بل إنّ برنارد لويس نفسَه، الذي لا يمْكن الاشتباهُ في تعاطفه مع العرب، سبق أن شدّد على أنّ معاداة الساميّة في العالم العربيّ الإسلاميّ قد تمّت نتيجةً للمسألة الفلسطينيّة، ولم تكن متجذّرةً في التاريخ العربيّ ـ الإسلاميّ، خلافًا لما حَدَثَ في الغرب المسيحيّ.

في كتابي أبيّن بالتفصيل كيف انبثق هذا الخطابُ في العالم العربيّ، وكيف أنّ الرجل الذي أدى الدورَ الأساسَ في صياغته عربيًا سبق أن شَجَبَ الغربَ المسيحيَّ للاساميّته في حادثة دريفوس أواخرَ القرن التاسع عشر. بل إنّ هذا الرجل، محمّد رشيد رضا، حاول أن يبني علاقاتٍ بالحركة الصهيونيّة سعيًا إلى إقناعها بالتعاون العربيّ ـ اليهوديّ إنْ هي نَبَذَتْ مشروعَها لخلق دولةٍ يهوديّةٍ في فلسطين. لكنّ رضا انتهى إلى فقدان أيّ وهمٍ بإمكانيّة هذا التعاون، وطوّر بعد انتفاضة العامّ ١٩٢٩ في فلسطين خطابًا معاديًا للساميّة، «مُدبلِجًا» الخطابَ الغربيّ المعادي للساميّة إلى العربيّة، وناثرًا فوقه آياتٍ من القرآن واقتباساتٍ أخرى مأخوذةً من العناصر المعادية لليهود في التراث الإسلاميّ. ومن المعروف جيّدًا أنّ هذه العناصر أكثرُ حضورًا في التراث المسيحيّ، وأنّ هناك عناصرَ معاديةً للمسيحيّة ومعاديةً للإسلام أيضًا في التراث اليهوديّ. فمع أنّ الديانات التوحيديّة الثلاث تدعو الناسَ إلى أن «يحبّوا بعضَهم بعضًا،» فإنّها تكره بعضها بعضًا كراهيةً عميقةً في الواقع.

❖ ❖ ❖

هذا التيّار الذي نقل الخطابَ الغربيَّ المعادي للسامية إلى العربيّة سيلعب لاحقًا دورًا بارزًا في استيراد خطابِ «إنكار المحرقة» ونشرِه في العالم العربيّ. لم يكن العربُ هم مَن بادروا إلى إنكار المحرقة طبعًا، بل بدأ ذلك في الغرب، وتحديدًا هنا في ألمانيا، منذ زمنٍ بعيد، بعد سنة ١٩٤٥، وفي بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. وقد تطوّر ذلك في العقود الأخيرة إلى ما تُمكن تسميتُه «صناعة إنكار المحرقة،» وذلك مع إصدارِ مكثّفٍ للكتب والكتيّبات والمنشورات الإلكترونيّة وهلمجرًا. إنّ إنكار المحرقة لهو في الأساس محاولةٌ مخبولةٌ، لاساميّةٌ بشكلٍ عميق، من أجل نفي أن يكون النازيّون قد اقترفوا إبادةً ضدّ اليهود الأوروبيّين، أو للتقليل ممّا حدث فعلاً واختزالِه إلى محض مجزرةٍ ذاتِ أبعادٍ ونسبٍ أقلّ بكثير ممّا هي عليه في الواقع.

لم يكن العربُ هم مَن بادروا إلى إنكار المحرقة طبعًا، بل بدأ ذلك في الغرب، وتحديداً هنا في ألمانيا، منذ زمنٍ بعيد، بعد سنة ١٩٤٥، وفي بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة.

بدأ إنكارُ المحرقة الغربيُّ بالانتشار في العالم العربيّ قبل حوالى ٢٠ سنة، بما يتخطّى الهامشَ الذي كان محصورًا ضمنه حتى ذلك الوقت. ويرتبط انتشارُه ارتباطًا وثيقًا بتصاعد التوتّرات في الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ، ولاسيّما احتداد الكراهية الناجم عن الغزو الإسرائيليّ للبنان عامَ ١٩٨٢. وقد تفاقمتْ هذه المشاعرُ مع القمع الإسرائيليّ للانتفاضة الفلسطينيّة منذ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧، ومع التوتّرات المتزايدة في الأراضي الفلسطينيّة واللبنانيّة المحتلّة، وصولاً إلى إعادة احتلال الجيش الإسرائيليّ (وبشكلٍ وحشيّ) عامَ ٢٠٠٢ للأراضي التي سبق أن أخلاها في الضفّة الغربيّة. وتبع ذلك كلَّه القصفُ البالغُ العنف للبنان عامَ ٢٠٠٦، وخنقُ قطاع غزّة بعد العام ٢٠٠٧ وقصفُه الهمجيّ له في كانون الأول ٢٠٠٨ ـ كانون الثاني ٢٠٠٩.

إنّ تلاحُقَ أعمال العدوانيّة العسكريّة الإسرائيليّة الوحشيّة والقمع الضاري طوال ثلاثة عقودٍ أدّى إلى مشاعرَ حادّةٍ جدًا على جانبي الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ. وبدءًا من غزو لبنان عام ١٩٨٢ تسبّبتْ تلك الأحداثُ في تدهورٍ حادٍّ في صورة إسرائيل في الغرب. فإلى ذلك الحين كانت تلك الصورةُ إيجابيّةً بشكلٍ عامّ، أكثرَ إيجابيّةً بكثيرٍ من صورة العرب أو الفلسطينيين. لكنّ الوضعَ تغيّر تغيُّرًا كبيرًا بعد غزو لبنان ذاك: فخلافًا للحروب الإسرائيليّة السابقة، لم يكن بإمكان الدولة الصهيونيّة إقناعُ الرأي العامّ العالميّ بأنّ غزوَ لبنان «حربٌ دفاعيّة،» نظرًا إلى الاختلال الواضح في موازين القوى [بين القوات المشتركة اللبنانيّة ـ الفلسطينيّة، وجيشِ الاحتلال]. ثم إنّ مشهدَ الجيش الإسرائيليّ وهو يحاصر بيروتَ، عاصمةَ أضعفِ جارٍ لإسرائيل، صَدَمَ خيالَ العالم أجمع.

❖ ❖ ❖

ردّت إسرائيلُ على تدهور صورتها باللجوء من جديد إلى توظيف المحرقة، ولكنْ على نحوٍ أشدّ كثافةً وإفتراءً ممّا حدث في أيّ وقتٍ مضى. وكان مناحيم بيغن، رئيسُ وزراء إسرائيل أثناء ذلك الغزو، معروفًا بإشاراته المتكرّرة إلى المحرقة (اقرأوا كتاب توم سيغيف الممتاز بهذا الصدد، وعنوانُه **المليونُ السابع**)، حتى في أمور السياسة المحلّيّة الإسرائيليّة، إذ كان يشبّه خصومَه السياسيّين بالنازيّين.

ولقد مارس بيغن هذا الاستغلالَ إلى أقصى مداه، ووصل فيه إلى مستوياتٍ بالغةِ الحماقة فعلاً، حين كان في سدّة الحكم:

يورد سيغيف، مثلاً، أنّ بيغن، أثناء اجتماع للحكومة الإسرائيليّة، برّر غزوَ لبنان، الذي كان على وشكّ شنّه، بتأكيده أنّ البديل سيكون «تربلينكا» [اسم أحد معسكرات الإبادة النازيّة]، مثيرًا بذلك شبحَ المحرقة النازيّة. وذلك هراءٌ محضٌ إنْ فكّرتم بالخلل الهائل في موازين القوى آنذاك.

وحين كتب رونالد ريغان إلى بيغن يُعْرب عن قلقه على مصير المدنيّين جرّاء الحصار الإسرائيليّ لبيروت، ردّ بيغن بأنّ الجيش الإسرائيليّ يواجه هتلر (ويَقْصد ياسر عرفات) في مخبإه ـ وهي مقارنةٌ بالغة الحماقة بالطبع. والحقّ أنّ عدّة مؤلّفين إسرائيليّين دانوا استغلالَ الإحالة على المحرقة، وقد ذكرتُ أحدهم، ألا وهو توم سيغيف. لكنّني أنصح أيضًا بقراءة كتاب إيديت زيرتال، **هولوكوست إسرائيل وسياسات الهويّة**، عن «توظيف» المحرقة ـ بتعبيرها ـ في السياسات الإسرائيليّة. وقد بلغ هذا الاتجاهُ ذروتَه بعد الحرب على لبنان (عام ٨٢) ويفسِّر توسّعَ ظاهرة إنكار المحرقة في الجانب العربيّ ردًا على التوظيف الصهيونيّ لها.

❖ ❖ ❖

على أنّ هذا لا يعني أنّ إنكار المحرقة بات التيارَ المسيطرَ في العالم العربيّ، على ما تَزْعم البروپاغندا المعاديةُ للعرب. فهذا، من جديد، محضُ افتراء. غير أنّ ذلك الإنكارَ اتّسع بلا شكّ أثناء العقدَيْن الأخيرَيْن أو أكثر، وترافَقَ مع انزياح كاسح في المشهد السياسيّ العربيّ ـ ممّا كان عليه في الخمسينيّات والستينيّات وصولاً إلى السبعينيّات حين كانت التيّاراتُ اليساريّةُ هي المسيطرةَ على الحركات الجماهيريّة، قوميّةً كانت أو ماركسيّةً، إلى حقبةٍ باتت الحركاتُ الجماهيريّةُ فيها تقع في غالب الأحوال تحت سيطرة الحركات الأصوليّة الإسلاميّة الأقرب إلى تبنّي مواقفَ تُنكر حصولَ المحرقة. ولكنّ الحركات الأصوليّة الإسلاميّة نفسَها لا تُدْمن هذا النوعَ من الخطاب إدمانًا لا شفاءَ منه.

خذوا مثلاً حركةَ حماس، التي تضمّن ميثاقُها الأساسيُّ إشاراتٍ لاساميّةً صارخةً إلى **پروتوكولات حكماء صهيون**. فلو راقبتم تحوّلاتِ الحركة في السنوات الأخيرة للاحظتم اختفاءَ مثل تلك العبارات اللاساميّة نتيجةً للخبرة السياسيّة التي اكتسبتْها الحركة. والواقع أنّ هذا التوجّه الجديد سهّله بعضُ أعضاء الحركات المطّلعين على الثقافة الغربيّة، والذين أدّوا دورًا فاعلاً في تغيير خطابها: فلقد شرَحوا كيف أنّ العبارات اللاساميّة تُضرّ بالقضيّة الفلسطينيّة، بل تَخدم فعليًا البروپاغندا الصهيونيّة.

والحال أنّ هناك مواقعَ إلكترونيّة ومنشوراتٍ صهيونيّةً لا تُحصى تورِدُ كلَّ شاردةٍ وواردةٍ في العالم العربيّ معاديةٍ للساميّة أو مُنْكرةٍ للمحرقة. هذه التصريحات المشؤومة ـ وهي للأسف كثيرةٌ ـ يتمّ تضخيمُها [في الإعلام الغربيّ والصهيونيّ]، في حين أنّ التصريحات العربيّة والفلسطينيّة التي تُقرّ بحصول الإبادة النازيّة وتتعاطف مع ضحاياها اليهود تكاد ألاّ تُذكرَ حين تصدُر عن نقّادِ إسرائيل.

كتب مؤلّفان إسرائيليّان كتابًا انتقدتُه بشكلٍ واسع في كتابي، يتناولان فيه التوجّهات العربيّة إزاء المحرقة، وذلك بعد العام ١٩٤٨. فلقد استشهد الكاتبان ٢٠ مرّةً بأحد منكري المحرقة المغمورين في الأردن، وأثرُه ضئيلٌ جدًا في العالم العربيّ. لكنّهما لم يكلّفا نفسيْهما أن يَذْكرا، مثلاً، الزيارةَ التي قام بها ياسر عرفات إلى منزل آن فرانك في أمستردام عام ١٩٩٨. وقد جاءت الزيارة عقب سعي عرفات إلى زيارة متحف الهولوكوست في واشنطن، وهي التي أجهضتْها إدارةُ المتحف حين رفضتْ منحَه صفة «شخص مهمّ جدًا» (بما يعني أنّه كان عليه أن يقف في الصفّ شأن الآخَرين). وقد اعتبر الزعيمُ الفلسطينيّ ذلك الردَّ إهانةً بالطبع، وحاول أن يعوِّض من فشل هذه الزيارة بزيارة منزل آن فرانك، التي لم تذكرْها وسائلُ الإعلام العالميّة إلاّ بشقّ النفس.

❖ ❖ ❖

بعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١، وما تبعها من طفرةٍ في رُهاب الإسلام في الغرب، غذّاها استغلالُ صورتيْ تنظيم «القاعدة» والسلفيّة الإسلاميّة المتطرّفة، تكثّفت الدعايةُ التي تصوِّر العربَ والمسلمين وكأنّهم نازيّون. وقد نتج من ذلك صدامٌ بين مرويّاتٍ يمينيّةٍ متعصّبة، يقف في جانبه العربيّ سلفيّون إسلاميّون، وفي جانبه الإسرائيليّ ما سُمّي «نيو ـ صهيونيّة»، أيْ ذلك التيّار الصهيونيّ اليمينيّ المتطرّف الذي تطوّر في السنوات الأخيرة الى أن أصبح طرفًا مهمًا في الحكومة الإسرائيليّة. ويترافق صدامُ المرويّات المذكور مع صدامٍ بين نوعيْن من الإنكار.

غير أنه أيًا ما كان غباءُ إنكار العرب للمحرقة أو دناءتُه، بحسب المُنْكِر وبحسب الظروف [التي يُنْطَق فيها ذلك الإنكارُ]، تبقى حقيقةُ أنّ مَنْ يُنكر المحرقةَ، عربًا أو فلسطينيين، إنّما يُنكر إبادةً تاريخيّةً لا يتحمّلُ العربُ أو الفلسطينيّون أيّةَ مسؤوليّةٍ عنها. وفي المقابل، فإنّ الإسرائيليّين يُنْكرون، على المستوى الرسميّ، وقوعَ النكبة الفلسطينيّة عام ٤٨! صحيح أنّ النكبة لم تكن إبادةً جماعيّةً ـ لحسن الحظّ ـ غير أنّها كانت تطهيرًا عرقيًا، أيْ جريمةً ضدّ الإنسانيّة، ما زالت إسرائيلُ تُنْكرها إلى حدّ سعيها إلى منع استخدام كلمة «نكبة.» فحين أرسل أمينُ عامّ الأمم المتّحدة، بان كي مون، رسالةً إلى الرئيس الفلسطينيّ محمود عبّاس عام ٢٠٠٨ بمناسبة الذكرى الستّين للنكبة، كتبتْ إليه وزيرةُ خارجيّة إسرائيل تسيپي ليڤني احتجاجًا رسميًا ضدّ استخدامه هذه الكلمة. إنّ إنكارَ جريمةٍ ما، حين يأتي من الدولة التي اقترفتْها، لهو أخطرُ بكثير من الإنكار الغبيّ والرجعيّ للمحرقة النازيّة الذي يمارسه بعضُ العرب.

في الطفرة الأخيرة لصِدام المرويّات العربيّة ـ الإسرائيليّة، لعب بعضُ الألمان دورًا مميَّزًا في الإسهام في مرويّة المحافظين الجدد أو المرويّة النيو ـ صهيونيّة، اللتين تُعزِّزان رُهابَ

الإسلام. وقد كتب أحدُ المؤلّفين الألمان كتابًا يسْرد فيه مرويّةً تاريخيّةً تبدأ بالمفتي وتنتهي بن لادن، وتَشْمل عبدَ الناصر وصدّام حسين وياسر عرفات وآخرين كثيرين يصوِّرون كلُّهم على أنّهم لاساميّون مسعورون. وثمّة كتابٌ آخر أكثرُ جديّةً يستند إلى الأرشيف الألمانيّ النازيّ، ويتناول المخطّطات النازيّة للشرق الأوسط؛ لكنْ أيًا ما كانت الاكتشافاتُ ذاتُ القيمة البحثيّة التي تَضمّنَها فَإنّهَا تَلطّخَتْ بتصريحاتٍ تعميميّةٍ كاسحةٍ عن العرب، مع أنّ مؤلِّفَي الكتاب المقصود ليسا في أيٍّ من الأحوال من الخبراء في شؤون العالم العربيّ، بل هما لا يعرفان لغتَه.

الأمر الأكثرُ لفتًا للنظر هو أنّ هذين المؤلِّفَين يصدِّقان الدعايةَ النازيّةَ والتقاريرَ التي أرسلها العملاءُ الألمان النازيّون إلى برلين! وهكذا فإنّ كلّ العرب، لديهما، كانوا نازيّين لأنّ عملاءَ برلين كتبوا أنّ «جميع العرب يحبّون الفوهرر» ـ وهذا شبيهٌ بوصفٍ لآراء الطبقة العاملة في الولايات المتحدة في الخمسينيّات يستند إلى ما قاله آنذاك عملاءُ موسكو السياسيّون والدعاية السوفياتيّة. إنّه الهراءُ بعينه. ولحسن الحظّ أنّ في ألمانيا أيضًا باحثين جديّين يقفون في وجه هذه الكاريكاتورات.

❖ ❖ ❖

أيّةُ دروس يمكن أن نستخلصَها من المأساة التاريخيّة العظيمة التي مثّلتْها المحرقة النازيّة؟

الدرسُ الخطأ هو أن ينتقل المرءُ من اللاساميّة إلى نوع من محبّة الساميّة (philosemitism) التي انتقدها أشخاصٌ مثل إليونوره شتيرلينغ 1968-1925 [وهي باحثة ألمانيّة يهوديّة تخصّصتْ في تاريخ اللاساميّة في ألمانيا]، أو فرانك ستِرْن، الأستاذ السابق في جامعة بن غوريون في النقب.

إنّ استخلاصَ الدرس الصحيح من المحرقة لا يكون بالانتقال من معاداة الساميّة إلى نقيضها، ليبقى المرءُ ضمن منظورٍ يُفرِد اليهودَ خارج مجرى الأمور الطبيعيّة؛ فهذا المنظور لا يشكّل قطيعةً فعليّةً مع الذهنيّة المعادية للساميّة. إنّ استخلاصَ الدرس الصحيح من المحرقة ينبغي أن يقودَ إلى التمرّد والقتال بشراسةٍ ضدّ كلّ تمظهرات العنصريّة والكراهية الإثنيّة، أكانت العداءَ للساميّة أمْ رُهابَ الإسلام. والحقّ أنّ العنصريّة المعادية للمسلمين هي اليوم الشكلُ الطاغي للعنصريّة الموجودة فعلاً في أوروبا المعاصرة، وهو ما ينبغي أن نبقيَه راسخًا في أذهاننا إذا أردنا أن نستوعبَ دروسَ المحرقة بشكل صحيح.

إنّ استخلاصَ الدرس الصحيح من المحرقة ينبغي أن يقودَ إلى التمرّد والقتال بشراسةٍ ضدّ كلّ تمظهرات العنصريّة والكراهية الإثنيّة، أكانت العداءَ للساميّة أمْ رُهابَ الإسلام.

إنّ المهمّة التي سعيتُ إلى إنجازها في كتابي هي الإسهامُ في فهمٍ حقيقيّ متبادلٍ بين العرب والإسرائيليّين عبر نبذ الخطاباتِ العنصريّة والمرويّات المشوّهة من كلا الجانبين، شرطًا مسبقًا لسلامٍ حقيقيّ. على المواطنين الإسرائيليّين أن يَعْترفوا بالنكبة، أن يعترفوا بالظلم الذي اقترفتْه دولتُهم بحقّ الفلسطينيين، وبالاضطهاد الرهيب الذي تُنزله حاليًا بهم. ولقد قاسى فلسطينيّو غزّة والضفّة الغربيّة بوجهٍ خاصّ مأساةً مروّعة في الأعوام الأخيرة ولا زالوا يقاسونها، وهي أسوأ مأساةٍ خَبِروها على يد إسرائيل في تاريخ الاحتلال الطويل. ولحسن الحظّ أنّ هناك العديدَ من المثقّفين والناشطين الإسرائيليّين يمقتون هذا الاضطهادَ ويقاتلون ضدّه؛ وهناك إسرائيليّون، سواءٌ انتموا إلى «المؤرّخين الجدد» أو إلى «ما بعد الصهيونيّة» (Post-Zionism)، يَرفضون المرويّة التاريخيّة الصهيونيّة ويقاتلون من أجل الحقيقة التاريخيّة والاعترافِ بجرائم الحرب الإسرائيليّة. هؤلاء الإسرائيليّون يقاتلون من أجل تغييرٍ جذريٍّ في السياسة الإسرائيليّة. وعلى الجانب العربيّ، لستُ سوى واحدٍ من كثيرين من أنصار القضيّة الفلسطينيّة المعادين للصهيونيّة الذين يقاتلون بحزمٍ ضدّ أيّ تمظهرٍ لمعاداةِ الساميّة، أو لإنكار المحرقة، ومن أجل حلّ للصراع يتعايش بموجبه العربُ واليهودُ بسلامٍ وعدالة.

لندن

في العدد القادم

■ زياد حافظ: الأخلاق في الاقتصاد الإسلاميّ.